حديث اليمن

وحلة جغرافية عمرانية

للاستاذ وصفي زكريا

سانتني التقادير في مطلع عام ١٩٣٦ الى اليمن . وكان ذهابي اجابةً لطلب جلالة مليكة الامام كي اخدم زراعة بلاده وانظر الى ما يؤدي لصلاحها في ستة اشهر حددها . فذهبتُ وقتُ في تلك المدة المتناهية في القصر بأقصى ما يمكن ان يؤتى في خدمة الزرع والغرس . منها انني فتحت مدرسةً زراعيةً علمتُ فيها بعض شبانهم اهم نظريات الزراعة الحديثة وعملياتها ، واستجلبت من مشاتل الشام ومصر وايطاليا ووزعت وغرست الوفاً من اشجار الفاكهة والحراج على اختلاف انواعها واصنافها . وكلها مما وجدته نافعاً ومناسباً لحاجة اودية اليمن الاعلى وجباله ومما لا عهد لليمانيين به من قبل، وكتبت ونشرت عدة مجالات ورسائل في اجل الموضوعات الزراعية الحديثة التي تعوزهم وتفيدهم

وقد كنت خلال اعمالي الزراعية المذكورة في صنعاء والانحاء القليلة التي مكنوني من زيارتها اتفهم المعلومات الجغرافية والتاريخية والطبيعية والعمرانية وما اليها ، فحصلت على نبذ منها رأيت على قلتها ان انشرها في « المقتطف » . وقد حفزني الى ذلك كون اليمن لا يزال غير معروف في جملته ، لم يكتب عنهُ في الماضي والحاضر كتابات كافية . وما كتب في اللغة العربية خاصةً قلما شمل الابحاث التي عنيت بها . لان اليمن كان وما برح كالموصد في وجوه الغرباء ولا سيما الباحثين منهم ، ولم يتسنَّ جوس ديارهِ والتماس مجاهله الا للقليل من الشرقيين والغربيين . ولا يزال مجال البحث والكتابة فيهِ واسعاً يحتاج الى جهود جمة

نبذة جغرافية

﴿ الحدود ﴾ اليمن قطرٌ واسعٌ مستطيل الشكل في الزاوية الجنوبية الغربية من جزيرة العرب . وحدوده الرسمية في يومنا من الشمال بلاد عسير التابعة للمملكة السعودية يفصله عنها

خط يمتد من ميناء ميدي على البحر الأحمر الى شمالي بلدة صعدة متبعاً وادي مخلاف الى حدود نجران ويام الجنوبية [١] وحدوده من الجنوب المحميات التسع المرتبطة بمستعمرة عدن [٢] يفصله عنها خط يمتد من الشيخ سعيد تجاه باب المندب الى جنوبي بلاد الحجرية ومادية وقعطبة . ومن الشرق بلاد حضرموت يفصله عنها وادي بيحان وبادية الجوف الممتدة الى الربع الخالي ؛ ومن الغرب البحر الأحمر

وقدمى اليونان بلاد اليمن بالعربية السعيدة Arabia Felixa وسماها العرب بالخضراء [٣] ، وذلك لكثرة اشجارها وزروعها ووفرة خيرها وميرها بالقياس الى بقية اقطار الجزيرة العربية القاحلة في الغالب . واليمن في عرف العرب هو الجزء الجنوبي من جزيرتهم ، او هو كل ما كان جنوبي الحجاز كما ان الشام هو كل ما كان شمالي الحجاز . وكانوا يجعلون حدوده من البحر الاحمر غرباً الى خليج فارس شرقاً ، فيدخلون فيه حضرموت وعمان والربع الخالي ولواء عسير والمحميات التسع وعدن الا ان هذا التحديد كان اعتباريًّا في اغلب العصور ولم يتحقق الا قليلاً . لان عمان وحضرموت ان تبعتا اليمن قبل الاسلام في عهد الحميريين لم تتبعاه بعد الاسلام . بل ساد فيهما ولاة مرتبطون بعاصمة الخلافة مباشرة ، او امراء محليون مستقلون . وبلاد عسير كانت يد بعض الامراء ايضاً وآخر هؤلاء في القرن الماضي آل عايض . وكان اشراف مكة في الشمال وامراء نجد في الشرق وأئمة اليمن في الجنوب يدعون بامتداد نفوذهم الى بعض المناطق او القبائل من عسير ونجران المجاورة لهم . ولما استفحل امر محمد ابن عايض وهاجم تهامة وحاصر الحديدة جردت الدولة العثمانية عليه في سنة ١٢٨٨ هـ جيشاً بقيادة رديف باشا فشتت شمله وقضى على امارته وجعل عسير لواء مرتبطاً بولاية اليمن التي تألفت في السنة التالية على اثر استرداد صنعاء يد احمد مختار باشا الغازي

وظل لواء عسير بأقضيته الستة (ابها ومحايل ورجال المع وقنفذة ورجي شهر وغامد وضبيا) تابعاً لصنعاء اولاً ثم لمقر السلطة في استانبول اخيراً ، حتى ثار فيه الادارسة عقيب اعلان الدستور العثماني وحاربوا الدولة ثم استقلوا قبيل الحرب العامة ووطدوا استقلالهم بعدها . ولما جلا العثمانيون عن اليمن سنة ١٣٣٧ واستتب الملك فيه للامام يحيى قاتل الادارسة الذين كانوا مدوا ايديهم الى تهامة اليمن واستولوا على الحديدة . وبعد ان اخرجهم في سنة ١٣٤٣ عزم على اخذ عسير — معتبراً اياه من اليمن . ولما شعر الادارسة بعجزهم عن مقاومته التجأوا

---

(١) تقلب جزيرة العرب لحافظ وهبة (٢) هي الامارات والمشيخات المكائنة في جنوبي اليمن الاسفل التي دخلت تحت حماية الحكومة البريطانية منذ احتلال عدن سنة ١٨٣٩ (١٢٥٣ هـ) . وهي لحج والصبيحة ، والحواشب والقطيب والعواقل ويافع والضالع والواحدي والعوازل (٣) صفة جزيرة العرب للهمداني

سنة ١٣٤٥ الى عبد العزيز ابن السعود ملك الحجاز ونجد ووضعوا بلادهم تحت حمايته

وظل الامام يحيى يحاول الاستيلاء على عسير وعلى مخلاف نجران المختص بالحجاز ونجد من قبل وتفاقم الخلاف من جراء ذلك بينهُ وبين الملك عبد العزيز . ونشبت الحرب في سنة ١٣٥٢ وتقدمت الجيوش السعودية في تهامة اليمن حتى الحديدة وباجل . فاضطر الامام يحيى اذ ذاك للتسليم بالحدود التي ذكرناها في مقدمة مقالنا ، وقضى الامر باخلاء عسير ونجران من اليمن نهائيًا

﴿ أقسام اليمن قديماً ﴾ كان اليمن قبل الاسلام يقسم الى مخاليف والمخلاف كما قال ياقوت في معجم البلدان بمنزلة الكور والرساتيق ولكل مخلاف اسم يعرف به وهو قبيلة من قبائل اليمن اقامت به وعمرتهُ فغلب عليه اسمها . فمن المخاليف التي ذكرها ياقوت ابين ولحج وبيحان وشبوة والمعافر والبحصبين والعود والسحول ورعين وجيشان ورداع ومآرب وريمة وذمار وغيرها . وكل مخلاف تحتهُ مخاقد ومدن وقرى

وفي صدر الاسلام قسمت اعمال اليمن على ثلاثة ولاة فوالٍ في الجَنَد [1] ومخاليفها وهو اعظمها ، ووالٍ في صنعاء ومخاليفها وهو أوسطها ، ووالٍ على حضرموت ومخاليفها وهو ادناها. وفي العصور الاسلامية المتوسطة قامت في اليمن وتداولت الحكم دول او الاصح دويلات عديدة كان اكثرها في تهامة وبعضها كائمة الزيدية في الجبال . ودولة الائمة كانت اطولها عمرًا . ودخل العثمانيون اليمن في القرن العاشر ، ولكن لم يلبثوا الا قرناً حتى غادروه مرغمين ، وظلوا يتحينون الفرص لاسترداده ، اعتقاداً منهم بان اليمن دعامة الجزيرة العربية وحصن الحجاز الحصين وان يدون الحجاز واليمن من ورائه لا يستتب البقاء لخلافتهم الاسلامية . ففي القرن الماضي سنة ١٢٨٨ تنحوا عسير على ما قدمنا ، وفي سنة ١٢٨٩ فتحوا صنعاء ومعظم جبال اليمن وكل تهامة ، فدانت لهم هذه البلاد واسسوا فيها (ولاية اليمن) وما زالوا حتى اخرجتهم نتائج الحرب العامة سنة ١٣٣٧ ، وسنأتي على تفصيل ذلك في النبذة التاريخية

***

﴿ اقسام اليمن في العهد العثماني والعهد الامامي الحاضر ﴾ كان اليمن في عهد العثمانيين يؤلف ولايةً واسعةً تشتمل على لواء عسير الذي تقدم ذكره وألوية صنعاء والحديدة وتعز . وكان كل من هذه الالوية يشتمل على اقضية وهذه على نواحٍ عديدة ، في كل ناحية مئات من القرى والعُزَل (جمع عزلة) . فكان يحكم في الولاية الوالي وفي الالوية المتصرف وفي الاقضية قائم المقام وفي النواحي المدير . وكانت مساحة هذه الالوية والاقضية والنواحي عظيمة وابعادها

(١) الجند بليدة قرب تعز . ولما ولاية . وذلك كانت تشمل التهائم واليمن الاسفل كله

شاسعة تزيد عن امثالها — في بقية ولايات الدولة وتتطلب تقسيمها الى اصغر من ذلك وتكثير عدد الاقسام . وقد اقترح هذا سنة ١٣١٩ الوالي حسين حلمي باشا المشهور بحسن ادارته ولكن لم يلبَّ اقتراحه . ومما يجدر ذكره ان يد العثمانيين لم تصل الى شرقي اليمن الاعلى وشماليه ولا جنوبي اليمن الاسفل فظلت مآرب وصحدة ونجران وشهران وقطبة العذر وماحولها من القبائل العاتية كحاشد وبكيل وارحب وذو حسين وامثالها تحت سلطة الائمة او المشائخ المحليين . وكذلك كان الحال في اراضي المحميات التسع في اليمن الاسفل التابعة لمستعمرة عدن كما تقدم ذكره

***

هذا وقد كان لواء صنعاء (قضاء صنعا) تليه نواح اسمها بلاد البستان ، بلاد الروس ، بني بهلول ، بني الحارث ، بني حشيش همدان ، سنحان ، ارحب ، نهم ، خولان ، الحدا . ثم (قضاء حراز) وقاعدته مناخه ونواحيه حراز وضحق وعرو وتوح وحجيلة . ثم (قضاء كوكبان) وقاعدته الطويلة ونواحيه كوكبان والمحويت وشبام . ثم (قضاء آنس) وقاعدته صوران ونواحيه آنس وعثمة وجبل شرق وجهران . ثم (قضاء حجة) وقاعدته حجة ونواحيه حجة وبني عرام وشنادرة وسور وعصار . ثم (قضاء ذمار) وقاعدته ذمار ونواحيه ذمار ومغرب عنس . ثم (قضاء يريم) وليس فيه نواح . ثم (قضاء رداع) وقاعدته رداع ونواحيه رداع وسوادية وجبن . ثم (قضاء عمران) وقاعدته عمران وفيه ناحية عيال سريح . وكان في لواء الحديدة (قضاء الحديدة) ونواحيه الحديدة وجزيرة قمران وجبل برع وحفاش . ثم (قضاء زبيد) وقاعدته زبيد ونواحيه زبيد وحيس ووصاب العالي ووصاب السافل . ثم (قضاء اللحية) وقاعدته اللحية ونواحيه اللحية وزهرة . ثم (قضاء الزيدية) وفيه ناحية بني قيس . ثم (قضاء جبل ريمة) وقاعدته ريمة ونواحيه ريمة والجعفرية وكسمة وسلفية . ثم (قضاء حجور) ونواحيه محايشة وعاهم وخمس وقارة وحرض وعبش . ثم (قضاء بيت الفقيه) وفيه احياء متفرقة من قبيلة الزرانيق . ثم (قضاء باجل) ونواحيه باجل وملحان . وكان في لواء تعز (قضاء تعز) ونواحيه تعز وتربة الفحم وقاعرة ومقبنة وذي شراق . ثم (قضاء إب) ونواحيه إب ومخادر . ثم (قضاء عُدين) ونواحيه عدين وجبش . ثم (قضاء قعطبة) ونواحيه جبل مريس ونادرة وحشا . ثم (قضاء الحجرية) ونواحيه الحجرية وقبيطة وجبش . ثم (قضاء لحج) وليس فيه نواحٍ

وقد ابقى الامام يحيى معظم هذه الاقسام على حالها واقام عليها حكاماً سماهم (عمال) جمع كلمة «عامل» التي كانت مستعملة في العصور الاسلامية الغابرة . وهؤلاء العمال يمثلون الامام ويعاملونه

بقية مصغرة في سلطته ودواعي ابهته . وهم يسيرون على نهج جلالته ونهج تلك العصور في الحكم الاقطاعي المطلق

***

(المساحة والسكان) لم يتسنَّ لولاة الترك وضباطهم ولا لجوَّالة الافرنج وبحاثهم — وعدد هؤلاء كان قليلاً — ان يضبطوا مساحة اليمن السطحية ويعرفوا عدد نفوسه ، ويضعوا خريطةً صحيحة لا لويته واقضيته . ذلك لتعذر هذا العمل في الزمن الماضي الطافح بالفتن والحروب . واستمرار هذا التعذر في الزمن الحاضر لرغبة الامام يحيى بقاء بلاده في عجوة عن الكشف والبحث . وكل المساحات والاعداد التي وضعت والخرائط الانكليزية والتركية التي رسمت وطبعت انما هي اعتباطية سماعية لا يصح الركون اليها الاَّ للاستئناس فحسب . فالترك كانوا [1] يعتبرون ولاية اليمن بأنوبها الاربعة التي ذكرناها بين درجات ٢٠ و ٢١،٣٠ من العرض الشمالي و٤٣و٣٣ من الطول الشرقي . وكانوا يقدرون طولهُ من الشمال الى الجنوب ٧٧٥ كيلومتراً وعرضهُ من الغرب الى الشرق ٣٥٠ كيلومتراً . وان مساحة اليمن السطحية تبلغ على التقريب ٢٣٥٠٠٠ كيلومتر مربع

اما عدد نفوس اليمن فقد اختلفت فيه الاقوال . فالمعاجم ودوائر المعارف الفرنسية والانكليزية تقدره تارةً بمليون وتارةً بمليونين ونصف . وهذا قليل ، لان اليمن اكثر بلاد الجزيرة العربية عمراناً وسكاناً

والترك [2] يقدرونه تارةً باربعة ملايين وتارةً بثلاثة بما فيه لواء عسير . أما اليمانيون [3] فيبالغون الى الخمسة عشر مليوناً . والتقدير التركي الثاني هو الاقرب الى الصحة حتى في يومنا . ذلك لان اليمن لم يحو ولا يمكن أن يحوي اكثر من ثلاثة ملايين ، لقلة أراضيه الزراعية ومرافقه الحيوية كما سوف نذكره ، ولاقفال لواء عسير عنهُ ، ولان الحروب والفتن الماضية أهلكت حرثهُ ونسله كثيراً فانقصت قطينه وهذه وان زالت في عهد الامام يحيى الاَّ انه قام مقامها كثرة وفيات الاطفال وتوالي الامراض العادية والسارية بحكم فقدان الاطباء وحرمان وسائل الاستشفاء ناهيك البؤس والشقاء الضاربين أطنابهما

دمشق : (البحث بقية)

(١) قاموس الاعلام لشمس الدين سامي

(٢) شمس الدين سامي في قاموس الاعلام . وحسين حلمي باشا في لائحته الاصلاحية (٣) عبد الواسع الواسعي في تاريخ اليمن